

القيم الاخلاقية في نصائح ابن جبير الشعرية

د. محمود شاكر محمود

الجامعة المستنصرية - كلية الاداب - قسم اللغة العربية

ان القيم الأخلاقية انسانية ، عامة بلا تحديد ،ولكن هناك قيما أخلاقية ذات صفات معينة تستأثر بها أمم دون أخرى ، بحكم استعدادها الفطري والحضاري ،ومردها الى اختلاف في الفكر والتفكير ، وتفاوت في الفهم والادراك .

ففي الوقت الذي تخضع بعض القيم الاخلاقية لعوامل التغيير والتعديل او الاضمحلال بدافع من سير الزمن وتطوره السريع ، فان هناك قيما اخلاقية سواها لايعروها التغيير ، ولايتناولها التبديل ، ولايسومها الاضمحلال ؛ كونها ثابتة الاصول ، راسخة الجذور ، ابدية التأثير في النفوس والعقول .

وهذا البعض الثابت من القيم الاخلاقية يؤثر بالضرورة في سلوك الانسان ، ويشده بقوة الى واقعه المعاش ، بكامل فكره وشعوره ، ويعينه على الترفع عما يشين الى كرامته وعزته ، وياخذ بيده الى الطمانينة والسكينة والفلاح .

ومما تقدم يعد الحفاظ على القيم الاخلاقية الثابتة مسؤولية الجميع ، وقد وعى شاعرنا ابن جبير الاندلسي(1) ت 624 (2) اهمية تلك المحافظة ، فشرع في توضيحها لابناء عصره وامته من خلال شعره ، منطلقا من خلفيته الاسلامية ، التي تنظر الى هذه القيم الاخلاقية بوصفها ((مبادئ وقواعد منظمة للسلوك الانساني ، فالاخلاق ليست جزءا من نظام الاسلام العام ، بل هي جوهر الاسلام وروحه السارية في جوانبه جميعا)) (3)

فالفلسفة الاخلاقية تعد اساسا للنظام الاسلامي عموما ، ومصادقه قول الرسول الكريم حينما سئل ((ما الدين ، قال : حسن الخلق)) (4) وقوله الشريف ((انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)) (5) ، فضلا عما اكسبته رحلاته الطويلة واسفاره المتكرره من خبره في التعامل مع الناس ، باختلاف اخلاقهم وتنوع صفاتهم .

فكان ابن جبير ذلك الشاعر الناصح ، الداعي الى التحلي بالقيم الاخلاقية والانتصار لها ، والحث على السلوك القويم : فجاء شعر النصح لديه هادفا الى توجيه الآخرين - في عصره وما بعده - نحو الاخلاق الفضلى والصفات العلى ؛ كي يستقيم سلوكهم ، وتحسن معاملتهم ، حسب رؤية الشاعر ومنطلقاته الثقافية والدينية والاجتماعية ، فضلا عن تجربته الشخصية . وموضوع شعر النصح يعد من الموضوعات الشعرية المهمة ، وتكمن اهميته بوصفه بداية موضوعات الشعر ، لان ((الشعر يكون في اول امره نصحا وارشادا ومواعظا ، تقوم على اساس التجارب الانسانية العامة)) (6)

فالشاعر الناصح هو الذي يخاطب الانسانية عامة ، ويتحرك ضمن الرؤيا الجماعية والتراث المشترك لابناء امته وعصره ، فهو يخدم الانسانية من خلال خدمة قومه ونصحهم ؛ فالانسانية تتطلب من يأخذ بيدها ويخفف عنها ، ويرود لها الطريق الى حيث الطمأنينة والامان ، بالاسلوب الذي تفهمه ، والذي يستوعب حياتها .

فالشعر ((ضرب من ضروب النشاط البشري الاخرى ، اذ لا بد للشعر من وظيفة)) (7) ، ومن هذه الوظيفة وما تستتبعها من مسؤولية انطلق شاعرنا ابن جبير ليتحمل اعباء قضايا عصره ، ويمدها بعصارة تجاربه وخلاصة ثقافته ؛ من خلال حمله لواء النصح لهم وارشادهم وتهذيب نفوسهم ، بتوجيههم نحو الاصلاح والالتزام بالقيم الاخلاقية النبيلة ، واجتناب الرذيلة .

ولعل من نافلة القول توضيح ارتباط موضوع الوصايا الشعرية بشعر النصح ، وكون الوصية الشعرية تخرج من مشكاة النصح ، فالوصية الشعرية هي ((ادب وامر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتحذير من ذل ، وتبصرة بعمل صالح)) (8) لذلك ظل ((استعمال الوصية مرتبطا بارادة الخير ، والتوجيه نحو ما هو واجب من فضائل النفس والسلوك)) (9) فلاجدال - بناء على ما تقدم - من القول بان الوصية تعد لونا من ألوان النصح ، فالشاعر الناصح الموصي

يسعى الى ابعاد المجتمع عن حياة الرذيلة الى حياة الفضيلة ، واعطاء صورة للانموذج الانساني القويم ، لما تحمله النصيحة والوصية من قيم اخلاقية ومبادئ سامية ، فضلا عن دلالاتها النفسية والفكرية .

وبعد استقراء شعر ابن جبير النصحي ، اتضح ان التوجيه الارشادي لديه كان متسع الجوانب ، شمل عددا من المآثر الحميدة ، والمآخذ المذمومة ، فاشاد بالاولى ودفع اليها ، وقبح بالاخري وحذر منها ، وعالج هذه بالتشجيع ، وتلك بالتقريع ، يدفعه الى ذلك احساسه بوظيفة الشعر لديه، ورسالته في توجيه الآخرين نحو الاحسن ، حسب منطلقاته وقناعاته .

وينبغي ان ننبه الى ان المعاني الخلقية التي هي عماد شعر النصح لايمكن الفصل بينهما دائما ، بل نراها - في احيان كثيرة - تجتمع حتى في المقطوعة الواحدة ، لكننا نفردها في هذا البحث لتيسير دراستها وتناولها . وقد جعلناها في مفاصلين : الاول : موضوعي ، شمل قسمين : المآثر الممدوحة ، والمآخذ المذمومة .

والاخر: فني ، شمل ثلاثة اقسام : المقطوعة ، والتقريرية والمباشرة ، واسلوب الطلب

المفصل الاول : الموضوعي :

القسم الأول : المآثر الممدوحة

يوصي الشاعر ابن جبير وينصح في هذا القسم بقيم اخلاقية مثلى ، لا بد من توافرها للنفس الانسانية ؛ كي تصل الى المرتبة الفضلى ، ومنها :

الصبر:

هو ملكة الثبات والاحتمال ، ويعد من الفضائل الخلقية التي يعتصم بها الانسان ، لتخفف من بؤسه، وتدخل الى قلبه السكينة والاطمئنان ، وتكون بلسما لجراحاته التي يتالم منها ، ولولا الصبر لانهارت نفس الانسان نتيجة البلاء التي تنزل عليه ، ولاصبح عاجزا عن السير في ركب الحياة . ولاهمية الصبر الكبرى امر الله تعالى المؤمنين بالصبر وتكفل المعية معهم ((يا ايها

الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين)) بقرة / 153

وعده الرسول الكريم ضياء للصابرين ((الصبر ضياء)) (10)

فضلا عن ذلك فان الفضائل الاخرى تحتاج للصبر ، فالحلم هو الصبر على المثيرات ،
والكتمان هو الصبر على اذاعة الاسرار ، وفيه يقول ابن جبير : (11)

عليك بكتمان المصائب واصطبر

عليها فما ابقى الزمان شفيقا

كفاك من الشكوى الى الناس انه

تسر عدوا او تسوء صديقا

فالصبر يهون على صاحبه ما يلاقيه من اذى الناس ، وما يواجهه من مصاعب ، ففيه العزاء
للقلوب المكلومة ، والشفاء للنفوس الحزينة .
العفة :

من كمالات الانسان ، اذ تقف بمواجهة نوازعه النفسية الغريزية ، ليرتفع ساميا بانسانيته النقية ،
فيتصرف بما تقره الاخلاق ، ويوجبه العقل .
وهذه الصفة الاخلاقية تغنى بها الشاعر ابن جبير اكثر من غيرها ؛ كونها الميزان الحقيقي
لاعتناق المثالية الاخلاقية ، التي يصل بها المرء الى السعادة والاستقرار ، بعيدا عن الانقياد
وراء اللذات ، واللهث خلف الاهواء : (12)

صن العقل عن لحظة في هوى

فان البصيرة طوع البصر

وغض الجفون على عفة

فان زناء العيون النظر ×

فالمرء لا يكون عفيفا الا اذا صان نفسه ، فصول النفس يدعو الى التزين بالقيم الاخلاقية ،
مبتعدا عن الرذائل ، ومنها غض البصر عما حرم الله تعالى ، فتعبير الشاعر عن العفة يمكن
ان نطلق عليه مسك النفس ، وهي كما تسمى ((نوع من الاتساق ، والسيطرة على الرغائب
واللذات ، وعليه نسمع الناس يقولون ان فلانا سيد نفسه باعتبار ما)) (13) ومن تسنى له ذلك
علت منزلته بين الناس ونال الامان من بغيهم : (14)

طهر بماء النقى جنانك

واصحب × على حاله زمانك

ودار ابناءه × عسى ان

تنال من بغيهم امانك

وهذه التقوى التي هي لازمة للعفة مابرح ركنا التشريع الاسلامي : القران والحديث يؤكدان عليهما وبأمران بهما ، كما في قوله تعالى ((ياايها الذين امنوا اتقوا الله)) الاحزاب / 70 ، وقول رسوله الكريم ((اكثر مايدخل الجنة ، التقوى وحسن الخلق) (15) فالتقوى والعفة هي ان تجعل بينك وبين مايعضب الله وقاية وجدار ، عماده حسن الخلق واساسه الابتعاد عن النواهي المذمومة، وامتنال الاوامر الممدوحة .

التواضع :

خلق رفيع يكشف عن نبل صاحبه وشرفه ، ويبين كرم خلقه واصالته . فالتواضع خلق الصلحاء الذين لا يرون لانفسهم مزية على الخلق، ولاعجب ان نرى الله تعالى يوحى الى نبيه ان يامر الناس بالتواضع ، فقد قال الرسول الكريم ((ان الله اوحى الي : ان تواضعوا حتى لا يفخر احد على احد ولايبغي احد على احد))(16) فالتواضع يعالج غوائل النفس ويحد من طغيانها ، فيمنعها من التفاخر والبغي فيما بينهم .

والتواضع لا يحط مرتبة ذي قدر وانما يزيده رفعة واجلالا ومحبة في قلوب الناس ، لان ارفع الناس قدرا من لا يرى قدره ، واكثرهم فضلا من لا يرى فضله . وقد حث شاعرنا على التحلي بهذه الصفة الخلقية المشرفة للنفس : (17)

اياك والشهرة في ملبس

والبس من الاثواب اسمالها

تواضع الانسان في نفسه

اشرف للنفس واسمى لها

المجلد الثاني - 2011

الشاعر هنا يذكر التواضع ونقيضه الكبر - الشهرة في ملابس -، وهما نقيضان لا يلتقيان ، وكلما ذكر احدهما قفز الى الذهن الاخر ، والانسان يدور بينهما ، واشد ماتدخل به النفس على صاحبها من سوء والاذى ان تبعث فيه الغرور والاعجاب بنفسه ، لذلك ينصح الشاعر ويوصي بان يعلم الانسان نفسه التواضع ، والا يغتر بما في يده .

الاناة :

هي التثبت وترك العجلة ، وهي عقل وحكمة ، وقد حث عليها القران الكريم حين اوصى بضرورة التبين والتثبت ، حتى لانقع في الخطا ولا نرمي الناس بالشبهات فنندم على فعلها ((يا أيها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتثبتوا * ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)) الحجرات / 6، ومن اتصف بالاناة فقد اوتي خيرا كثيرا؛ لان المتصف بها يكون له تاثير في محيطه، سواء بتشكيله جديدا صحيحا ، او تغييره نحو الافضل ، من خلال ما تضيفه عليه هذه الصفة من راحة عقل ، وصواب راي ، لذلك كانت هذه القيمة الخلقية مما اكد عليها ابن جبير الاندلسي : (18)

تان في الامر لاتكن عجلا

فمن تان اصاب اوكد

وكن بحبل الله معتصما

تامن به بغي كل من عادا

فالاناة من السوك العقلاني الرفيع ، اذ يحصن به الانسان نفسه من مقارفة الخطا - فمن تان اصاب اوكد - ، ويحميها من شرار الناس - تامن به بغي كل من عادا - .

القوة والشجاعة:

إن كان التواضع والكبر نقيضين لا يجتمعان - كما اسلفنا -؛ فان القوة والشجاعة صنوان لا يفترقان .

المجلد الثاني - 2011

والقوة تدل على الصلابه والتماسك ، وتستعمل في الاشياء المادية والمعنوية ، فيقال : قويت اطرافه ، وقوي عقله ، وقويت عزيمته . والقوة التي تتصل بالمعنويات انواع ، فهناك قوة الايمان ، وقوة الاخلاق التي تشمل قوة الكلمة وقوة الراي ، ولعل هذه القوة المعنوية هي التي عناها الرسول الكريم في قوله : ((المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير)) (19) ،

وهذه القوة لابد لها من شجاعة حتى لاتقف عند حدود القول ، بل تتخطاه الى الفعل ، فصاحب قوة الراي والكلمة في الحياة لابد ان يكون شجاعا ؛ كي يعصم من الاضطراب والقلق ، اللذان يؤديان الى التخاذل والفرار ، وهذا مارامه ابن جبير الاندلسي حين نصح واوصى بقوة الاخلاق المتمثلة بقوة الكلمة والراي ، المصحوبة بالشجاعة في قوله : (20)

بنفسك صادم كل امر تريده

فليس مضاء السيف الابدحده

وعزمك جرد عند كل مهمة

فما نافع مكث الحسام بغمده

فالمواجهة وما تتطلبه من قوة ، والصمود وما يقتضيه من شجاعة ، من اجل ابداء الراي السديد ، والموقف الصلب في الاوقات الحرجة ، هي عنوان بارز لقيمة اخلاقية عالية .

القسم الاخر : الماخذ المذمومة :

يسعى شاعرنا من خلال نصحه الاخلاقي الى اعادة تشكيل بعض جوانب سلوك الافراد والحد من ظواهر انحرافهم ، وكأنني به يرى ان احد سبل تحقيق الاخلاق المثلى هو تنزيه الانسان عن كل ما يسيء اليه من قول او سلوك مذموم ، ومنه :

الخنوع :

ان البشر على اختلاف طبقاتهم وتنوع مشاربهم مطبوعون على نوازع مادية وسلوك غير قويم ، تقوده النفس الامارة بالسوء واذا ماضعف الوازع الاخلاقي لدى البشر ، وسيطرت الماديات عليهم ، تلاشت مقدرتهم ، واضمحلت قدرتهم على المجادلة . فيؤدي بهم هذا الوضع المزري الى الخنوع للظالمين من الولاة وعامة الناس . فجاء ابن جبير ناهيا عن هذا الخنوع ومحذرا منه :
(21)

من الله فاسال كل شيء تريده

فما يملك الانسان نفعا ولاضرا

ولانتواضع للولاة فانهم

من الكبر في حال تموح به سكر

واياك ان ترضى بتقبيل راحة

فقد قيل انها السجدة الصغرىx

فمنع الخنوع للولاة من الظالمين ، ورفض تقبيل اياديهم ، يحفظان ماء الوجه ، ويصونان عزة النفس ، وهذا الصون وذلك الحفظ يمنحان الانسان مقومات الكرامة ، وحرية الراي ، والثبات امام الاهواء والنزوات .

ولعله في هذا الطرح يضمن معنى قوله تعالى الراض لهذا الخنوع ((ولاتركنا الى الذين ظلموا))
هود / 113

الجهر بالسوء :

يقف شاعرنا من خلال السيئة موقف المنكر بالقدرح والذم والتسفيه ، ومنها استخدام اللسان لغير ماقدّر له ، ولعل اللسان من اهم الجوارح التي تشهد على صاحبها ؛ ذلك لانه وسيلة مباشرة للتعبير والتعامل ، وهو عنوان لصاحبه وصورة لخلق وسيرته ، وقد حذر الله تعالى من استخدام اللسان استخداما سيئا بقوله تعالى ((لايجب الله الجهر بالسوء من القول)) النساء / 148.

وقد اكثر الشاعر من ذكر اللسان بوجهه السلبي والتحذير من مزالقه ، والشطط المتصل به ، من خلال جهره بالسوء . ومن الافات المحذر منها : الغيبة : (22)

الا رب عرض امرئ مسلم

بغير لسانك لم يستبح

اذا كنت في الناس ذا غيبة

تبيح بها منكرا لم يبيح

فلست باول ذئب عوى

ولست باول كلب نبج

فاستباحة اعراض الناس والنيل منهم عن طريق الغيبة ، تهوي بالانسان الى مرتبة الحيوان ، فصاحب الغيبة : اما ذئب يعوي ، او كلب ينبج ، واحدهما احط من الاخر .

واذا كان مما يحسب للانسان حسن حديثه ، فيحسب له كذلك حسن صمته ؛ ان لم يكن ثمة خير في الحديث (23)

تنزه عن العوراء مهما سمعتها

صيانة نفس فهو بالحر اشبه

اذا انت جاوبت السفية مشاتما

فمن يتلقى الشتم بالثتم اسفه

ان الانجرار وراء السفية والجهر بالسوء معه لردعه ، يضر اكثر مما ينفع . وذكر العوراء ونقلها عند سماعها يسيء للنفس ويردي بها ، لذلك كان الترفع عن كل هذا اللغو ، والصمت عنه هو السبيل لصيانة النفس الخلوة : (24)

واصمت اذا ماسمعت لغوا

ولا تحرك به لسانك

الركون الى الدنيا واهلها :

يبدو ان تجربة الشاعر كانت قاسية ومؤلمة مع الناس خلال حياته ، ولاعجب من ذلك فقد عاش الشاعر ابن جبير الاندلسي في عصر المحنة الكبرى عصر الموحدين ، الذي كثرت فيه حروب الاسترداد - كما يسميها المستشرقون - وازدادت الفتن الداخلية ، وغاب الخلفاء الموحدين عن مسرح الاحداث بالاندلس ، واستقروا بالعاصمة مراكش في المغرب العربي ، فقلت مراقبتهم لعمالهم في الاندلس ، وماكانوا يفعلونه بالبلاد والعباد من سوء المعاملة والظلم والاضطهاد، فضلا عن النظام الاجتماعي الذي وضعه المهدي مؤسس الدولة الموحدية للاندلس ، والذي يقوم على التفاوت الطبقي والعصبية القبلية . (25)

كل ذلك القى بظلاله الوخيمة على الفرد الاندلسي خاصة والمجتمع عامة ، فاختلف لديهم المقاييس الاخلاقية وتفاوتت ، فضغف الدافع الاخلاقي الذي يحرس الانسان ويحصنه من الوقوع في وحل فقدان الاخلاقيات في التعامل فانعكست صورة افراد المجتمع وتعاملهم على شاعرنا ابن جبير ، فصدرت رؤيته التي تقوم على اساس الحذر من الناس لفقدانهم الخيرية في التعامل ، تلك الخيرية التي يراها قد ذهبت مع ذهاب السلف الصالح : (26)

قد احدث الناس امورا فلا

تعمل بها اني امرؤ ناصح

فما جماع الخير الا الذي

كان عليه السلف الصالح

ولا اراه يعني بتلك الخيرية الا مجموعة القيم الاخلاقية العالية التي اتصف بها ذلك الرعيل الاول ، والذي تلقاها مباشرة من المعلم الاول ذي الخلق الرفيع المبعوث متمما لمكارم الاخلاق الرسول الكريم . فنصيحة الشاعر تكمن في دعوة الناس الى تلك القيم الاخلاقية والتخلق بها .

ويبدو ان فقدان الثقة في التعامل بين الشاعر والناس من جهة ، والناس مع بعضهم البعض من جهة اخرى ؛ نتيجة تحي الاخلاق جانبا ، وما يستتبعه من بروز اساليب ملتوية في التعامل ؛ جعل الشاعر ينصح الاخوان والاحبة بعدم الاقتراب من الناس والتعامل معهم ؛ حتى لاتصيبهم الشبهات : (27)

اسمع اخي نصيحتي

والنصح من محض الديانة ×

لاتقربن الى الشها

دة والوساطة والامانة

تسلم من ان تعزى لزو

ر او فضول او خيانة

فلنا ان نتصور كيف حال مجتمع ، مامن شاهد يشهد الا وسموه بالزور ، ولا وساطة الا نسبوها
لفضول ، ولا امانة الا حسبوها خيانة ، وما دام الحال كذلك ، فلاعجب من دعوة الشاعر الى
الانقباض عن الناس والدهر ، بعد ان اضحت مخالطتهم عبثا وهما وحزنا : (28)

ولاية الانسان سكر فما

دامت له مادام به السكر

مغايظ الدنيا واربابها

ليس عليها لامرئ صبر

دعهم مع الدهر واحداثه

حتى ترى مايصنع الدهر

ولنا في دعوة الشاعر الى الانعزال والانطواء تحفظ ووقفة ، فالناس مثلما فيهم السيء فيهم الحسن
، وكما يوجد الطالح يوجد بينهم الصالح ، والدهر وان احزن مرة فهو يفرح مرات ، اما التعميم -
والذي رامه الشاعر - دون استثناء فيخالف طبيعة الاشياء . وهذه النظرة السوداوية الانفرادية
والانطوائية الى الناس والدهر هي نظرة انهزامية ، تتناقض مع مادعا اليه الشاعر في الماثر
الممدوحة من تمجيد لقيمة الشجاعة والقوة والمواجهة ، بوصفها قيمة اخلاقية تعيد الامور الى
نصابها ، وتصحح المسار الخاطئ .

واجمالا لهذا المفصل بقسمية نقول : ان المضمون الاخلاقي للنصح استطاع ابن جبير تقديمه في قسمين : ماثر ممدوحة ، وماخذ مذمومة وتميزت هذه الاشعار في مجملها بكونها دعوة الى التحلي بالاخلاق الفاضلة والاداب الرفيعة ، والابتعاد عن غيرها من اخلاق واداب وضيعه . بيد ان هذه الشمائل الاخلاقية المثلى تكاد تكون مترابطة متلازمة مع بعضها البعض فلا مجال لان ينعى بهذه انسان دون تلك ، اذ يفترض بالانسان العاقل ان يكون : صبوراً ، وعفيفاً ، ومتواضعاً ، ومتانياً ، وقوياً شجاعاً . فضلا عن ابتعاده عن الخنوع ، والجهر بالسوء ، والركون الى الدنيا واهلها

المفصل الاخر : السمات الفنية :

السمات الفنية لشعر النصح متداخلة ، الواحدة تمسك بخطام الاخرى ، والفصل بينها فصل وهمي يعزى الى طبيعة المنهج المتبع والهادف الى تبسيط عملية وضع اليد على سمات هذا الشعر وخصائصة . ولعل ابرز سمات هذا الشعر النصحي قد وضعت في ثلاثة اقسام .

القسم الاول : المقطوعة :

هي القطعة الشعرية القصيرة التي لايتجاوز عدد ابياتها سبعة ابيات او عشرة في اكثر تقدير ، فابن رشيق القيرواني في عمدته يقول ((اذا بلغت الابيات سبعة فهي قصيدة ، ومن الناس من لا يعد القصيدة الا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بببيت واحد)) (29) ، فاقل من سبعة ابيات او ثمانية تعد مقطوعة .

وهذه القطعة تمتاز بالسهولة والبساطة في الفاظها ومعانيها ؛ كي تحفظ وتشيع بين الناس ، فهذا ابو عمرو بن العلاء حينما سئل ((هل كانت العرب تطيل ؛ فقال : نعم ؛ ليسمع منها . قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ؛ ليحفظ عنها ، قال : وقال الخليل بن احمد : يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ)) (30)

وقد اكد هذا المعنى ابن الزبيري حين قيل له ((انك تقصر اشعارك ، فقال : لان القصار اولج في السامع ، واجول في المحافل)) . (31)

وتمتاز المقطوعة بالوحدة الموضوعية ، فهي على قلة ابياتها ، لا يمكن بحال من الاحوال ان تستوعب اكثر من غرض واحد ، فيمكن ان نعدها مطلعا وخاتمة ، اغنت عن الغرض الاساس

المجلد الثاني - 2011

بنفسها . فالشاعر يرمي بثقله فيها ليصوغ فكرة ما ، يتم معناها في المقطوعة ، وهذا يستتبع الدخول في الغرض مباشرة والتصريح به، دون ان تكون هناك مقدمات .
ويبدو مما تقدم ان الامر في المقطوعة يكون اكثر سهولة وحرية مما عليه في القصيدة ؛ وذلك لقصرها ، وسرعة قولها وانتشارها وحفظها ، فهي تمثل للشاعر ((خاطرا راوده ، او شعورا حادا في لحظة من اللحظات ، او معنى طريفا جال في نفسه ، فاقتنصه دون ان يتوسع فيه)) (32)
ولعل شاعرنا ابن جبير قد راوده ذلك خاطر ، والشعور الحاد والمعنى الطريف ، وشعر باهمية المقطوعة ، وتأثيرها في العقول والقلوب ، وسهولة وصولها الى الاسماع والاذان ؛ فاختر لنصائحه الخلقية شكل المقطوعات ، فوضعها في اثنتي عشرة مقطوعة × ؛ كي تاخذ مداها في الافاق ويسمعها القاصي والداني ؛ فيعتبر بها كل من كان له قلب او القى السمع وهوشهيد .

القسم الثاني : التقريرية والمباشرة:

الشعر حين لا يغلف معانيه الخيال ، ولا يسهف تجربته الرمز ، يصبح شيئا قريبا من النثرية ، مرتبطا بالتقريرية والمباشرة ، وحينئذ تبتعد الشاعرية عن مجالها الحقيقي الرحب .
وهذا التعبير المباشر ليس خاصا بالدلالة الوضعية ، وانما يتجاوزها الى الاساليب البيانية التي تتفاوت مستوياتها ((فمن الفاظ اللغة طائفة مهمتها ان تنقل الافكار بين الناس ، ثم تقف عند هذا الحد ولا تعدوه)) (33) ، فتعد من ابسط الاساليب الفنية البيانية .

فمن العبارات ماهي اكثر فنية في التعبير من عبارات اخرى ، والصق بالمعنى ، واكثر تمثيلا له امام العيون ، وهنا تكمن ادبية النص بين ماهو متميز ، وبين ماهو تقرير مباشر ، فقد يتدنى التعبير المجازي الى ان يقرب من التقريرية والمباشرة وفيما ذكرناه عن المقطوعة ، اكدنا على ضرورة توشحها بوشاح البساطة والسهولة ، وامتيازها ب ((عدم التعقيد فيما يعبر عنه الشاعر)) (34)

وللشاعر - أي شاعر - اسبابه في اتخاذ هذا النوع من البناء الفني لشعره ، وهو ايمانه بقدرة هذا البناء على اصاله الى ما يريده بطريق واضح لاعراقيل فيه .

والشعر الذي نحن بصدد دراسته يسعى لاداء رسالته في تهذيب الاخلاق ، من خلال الدعوة لافضل سلوك انساني ، ينظم العلاقة بين افراد المجتمع الواحد ، من خلال تبني شاعرنا المثل الاخلاقية بمجموعة نصائح بثها في تضاعيف شعره ، وكان الهدف منها السعي ((الى كمال الحياة ، ومادام يسعى نحو هذا الهدف فلا بد من ان يتبنى المخطط الاخلاقي ، الذي يصل بهدي منه الى الفضيلة والسعادة ، ... ويوصل قيم هذا المخطط الاخلاقي بطريقة مباشرة ((35) .

وهنا نرى ان الشعر في ظل هذا الضرب يستلزمه الوضوح والسهولة المرتبطة بالتقريرية والمباشرة . وفي هذه الاشعار النصيحة استخدم ابن جبير هذه التقريرية والمباشرة ، وتلك الاساليب البيانية البسيطة ، فكانت عباراته مباشرة غير موحية ، لاغموض فيها ، ولا احتمال للتأويل ؛ كي تصل الى العامة والخاصة ، ويفهمها غير المثقفين قبل المثقفين ، ويتناولها صغار الناس قبل كبارهم ، ويهضمها ضعاف الادراك قبل اقويائهم ، وبالتالي يعيها افراد المجتمع بمختلف طبقاته ، وتتوع مستوياته ، وتباعد ازماته .

والشاعر ابن جبير وان ابتعد عن الفنية الادبية في التعبير ، والتي جعلت شعره في عداد المسلمات ، الا ان العذر له موجود ، فالشاعر اتخذ من الكلمة وسيلة لخدمة اهداف عامة ، وانشغل بما هو اهم من الصورة الخلاقة ، والعاطفة الجياشة ، وسط مجتمع مضطرب ، وجد في الشاعر - وامثاله - ملاذا يروود له السبل الاخلاقية ، الى حيث الطمأنينة والاستقرار . ولعل ادبية النصوص تكمن في انتهاج الشاعر لهذا الاسلوب السهل بعباراته التقريرية المباشرة، والذي يتلاءم مع الغرض الاخلاقي المراد اصاله الى المتلقي بمختلف مستوياته الفكرية والثقافية

القسم الثالث : اسلوب الطلب :

تعددت تعريفات الاسلوب وتنوعت ، ولعلها لاتخرج في النهاية عن كون الاسلوب : طريقة خاصة يسلكها الاديب ، وبصوغ فيها افكاره ، ويبين عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات ؛ لنقلها الى سواه بهذه العبارات اللغوية ، قصد الايضاح والتاثير . (36) والاديب عامة والشاعر خاصة يفصح من خلال ذلك ((ولو من حيث لايشعر عن ذوقه الخاص ، ويبين ولو من حيث لايدري عن حدود ذاته)) (37)

واحد ابرز هذه الاساليب : اسلوب الطلب ، والذي يضم بين طياته اساليب (الامر والنهي والاستفهام والتمني والنداء) . وقد اخذت هذه الاساليب اهتماما وعناية من البلاغيين ؛ لما فيها في فنون للقول ، وخروج عن الاغراض الحقيقية الى المجازية ، تفهم من سياق الكلام ، فعد اسلوب الطلب ((تفننا في القول ، لخروجه عن اغراضه الحقيقية الى اغراض مجازية تفهم من سياق الكلام)) (38)

بيد ان وقفنا ستقتصر على اسلوب الامر كونه الاسلوب الاوحد من بين اساليب الطلب الذي خيم على اجواء مقطوعات شعر النصيحة ، فكان حضوره فاعلا ، وتأثيره بارزا .
لقد تناول الباحثون القدماء منهم والمحدثون اسلوب الامر بتعريفات عدة فمن القدماء ابن حمزة العلوي الذي حده بكونه ((صيغة تستدعي ، او قول ينبيء عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء)) (39)

ومن المحدثين احمد الهاشمي الذي عرفه بانه ((طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الالتزام)) (40)

من التعريفين نرى اشتراط ان يكون الاستعلاء هو دلالة الامر على الوجوب ، ومن هنا يكون التمييز بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية . فالامر له معنيان : حقيقي ومجازي ، واذا كان الامر الحقيقي يلقي على وجه الاستعلاء ، فان الامر المجازي لا يشترط منزلة الاستعلاء بين الامر والمأمور ، المتكلم والمخاطب ، ولهذا قيل انه ليس على الوجه الحقيقي للامر . (41)
فاسلوب الامر يخرج من دلالاته الحقيقية ((لينتج مالم تتعود اللغة انتاجه ، وهذا المنتج يعتمد على تحول موضعي يخرج البنية من اصل المعنى)) (42)، وفيه تتسع دائرة اسلوب الامر وتخرج الى اغراض مجازية ، وما هذه الاغراض وتلك المعاني المجازية الا انعكاس لمشاعر تختلج بها النفس ، ليست لها ضوابط محددة ، ولا انظمة معينة .

فينتج بذلك دلالات مجازية تفهم من السياق ومن هذه الدلالات والاغراض والمعاني : الامر لغرض النصح والارشاد ، وهو ((طلب خلا من كل تكليف والزام ، يحمل بين طياته معنى النصيحة والارشاد)) (43)

وللامر - كما معلوم - صيغ اربع يؤدي بها هي (فعل الامر ، والمضارع المسبوق ب لام الامر ، واسم فعل الامر ، والمصدر النائب عن فعل الامر)، وقد جاء توظيف هذه الصيغ في شعر النصيحة بنسب متفاوتة ، وكان اكثرها استعمالا فعل الامر ، فقد ورد ست عشرة مرة (اصطبر

المجلد الثاني - 2011

، صن ، غض ، طهر ، اصحب ، دار ، اصمت ، البس ، تأن ، كن ، صادم ، جرد ، اسال ، تنزه ، اسمع ، دع) .

وذكرت لام الامر مع فعلها المضارع خمس مرات (لاتحرك ، لاتكن ، لاتتواضع ، لاتعمل ، لاتقربن) .

وجاء اسم فعل الامر ثلاث مرات (عليك ، اياك _ جاءت - مرتين) . ولم ترد صيغة المصدر النائب عن فعل الامر في مقطعات ابن جبير النصيحة .

وقد وجه ابن جبير اسلوب الامر توجيهها مغايرا لوجهته الحقيقية المتمثلة بطلب حصول الامر على وجه الاستعلاء والالزام ، فقد وجهه وجهة مجازية ادت غرض النصيحة والارشاد . والنصوص الشعرية التي تحفل بصيغ اسلوب الامر تكون سريعة في ايصال فكرة النصيحة بالوانها المتعددة من وصية وارشاد ووعظ ، لكنها ضعيفة الایحاء والتاثير الفني ، فالنص لا يقيم بسرعة التوصيل ، انما يقيم بما يحدثه في النفس من لذة جمالية ، فتحكم نزعة النصيحة باسلوبها التقريري المباشر وبنائها على شكل مقطعات ، ادى الى جفاف الحس ونضوب العاطفة ، مما جعل النصوص تفقد التوتر النفسي ، والتفجر العاطفي ، فاحالها الى نظم بارد لاروح فيه .

واجمالا لهذا المفصل باقسامه الثلاث نقول : اتخذ ابن جبير من الجانب الفني وسيلة لخدمة جانبه الموضوعي ، فسخر المقطوعة بما تحمله من سهولة وبساطة ، وارتباطها بالتقريرية والمباشرة ، وباسلوبها الطلبي المتمثل بصيغة الامر ، الذي خرج عن غرضه الحقيقي الى المجازي ، متمثلا بالنصح والارشاد ، اقول سخر كل هذا من اجل اخراج جانبه الموضوعي بطريقة واضحة لاغموض فيها ؛ من اجل ايصاله الى اكبر عدد من الناس ؛ كي يحقق المثالية الاخلاقية التي يبتغيها للمجتمع .

الهوامش

1/ هو محمد بن احمد بن جبير بن سعيد بن محمد بن عبد السلام الكناني الاندلسي ، دخل عبد السلام الى الاندلس سنة 133، ولد ابن جبير سنة 539 ، وهي الفترة التي شهدت سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين ، مما هيا له السبل للقاء اهل العلم ، وتلقي مختلف العلوم والاداب ؛ لان عصر الموحدين كان زاخرا بالعلم والعلماء .

كان ابن جبير اديبا معروفا في عصر هـ ، فضلا عن شهرته بالرحلات البحرية ، فكان رحالة بارزا . وتشهد له مؤلفاته بذلك ، فمن مؤلفاته النثرية : كتاب رحلته المشهور ، والذي حققه د.حسين نصار واسماه : عيون الادب العربي . وقال عنه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الادب الجغرافي العربي) : بانه مصنف رفيع الاسلوب ، 1/ 45.

ويذكر الاخباريون ان لابن جبير ثلاثة دواوين شعرية : نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرنين الصالح ، ونظم الجمان في التشكي من اخوان الزمان ، ومجلد متوسط . الا ان احدا من هذه الدواوين لم يصلنا .

جمع شعر ابن جبير مرتان ، الاولى : جمع الاستاذ فوزي الخطبا سنة 1991، عن دار الينابيع للنشر والتوزيع ، عمان - الأردن . والآخرى : مستدرك صنعه الزميل الدكتور محمد عويد سنة 2004، في مجلد المورد ، م31، ع2. ويذكر د.محمد عويد ان الذي دفعه الى هذا المستدرك ظهور كتب محققة جديدة لم تكن قد ظهرت أيام جمع الاستاذ فوزي ، فيها اشعار كثيرة لابن جبير ، وفي مقدمة هذه الكتب : كتاب ادباء مالقة ، تحقيق : د. صلاح جرار ، سنة 1999.

(×) ينظر : الاحاطة في اخبار غرناطة ، لسان الدين الخطيب ، تح: محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1973، 4/ 231 وما بعدها .

(×) نفح الطيب ، المقري ، تح: احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968، 2/ 142 وما بعدها

(×) رحلة ابن جبیر ، ابن جبیر ، تح : حسين نصار ، دار صادر ، بيروت ، 1959.، مقدمة المحقق .

2/ يورد جامع شعره الاول ، وصاحب المستدرک ، ان وفاة الشاعر ابن جبیر كانت سنة 641 ، معتمدين على رواية لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة ، علما ان لسان الدين ت776 ، وهو متاخر زمنيا عن ابن جبیر .

بينما يذكر معاصر ابن جبیر وهو ابو بكر محمد المالقي في كتابه (ادباء مالقة) ، ان وفاة ابن جبیر كانت سنة 624 ، علما ان ان وفاة المالقي كانت سنة 639 ، ويعد بذلك معاصرا لابن جبیر ، ومعلوم ان رواية المعاصر تقدم على المتاخر . فرجحنا رواية المالقي .
وان كان العذر موجودا لجامع شعره الاول ؛ كونه لم يحصل على كتاب (ادباء مالقة) ، الا ان صاحب المستدرک لا عذر له ؛ لانه اعتمد على كتاب (ادباء مالقة) في اكثر مستدركه .
ينظر وفاة ابن جبیر في رواية المالقي : ادباء مالقة ، ابو بكر محمد المالقي ، تح : صلاح جرار ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان - الاردن ، 1999، ص 134

3/ الاتجاه الاخلاقي في الاسلام ، مقداد يالجن ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1974، ص 47

4/ تعظيم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزي ، تح: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط1، مكتبة الدار ، 1406 ، ص35

5/ مسند احمد ، احمد بن حنبل ، تح: شعيب الارنؤوط واخرون ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996، رقم الحديث 743.

6/ الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث للهجرة ، احمد عبد الستار الجوارى ، دار الكشف ، بيروت ، 1956، ص 255

7/ قواعد النقد الادبي ، كرومبي ، ترجمة : محمد عوض ، ط3، القاهرة ، 1954، ص37

8/ لباب الادب ، اسامة بن منقذ ، تح : احمد شاكر ، المكتبة العصرية ، القاهرة ، 1987 ، ص1

9/ ادب الوصايا في الشعر الجاهلي ، سهام الفريح ، مجلة البيان ، ع208، س 1983 ، ص27

10/ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، النووي ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت ، ص31

11/ شعر ابن جبير ، ص74

12/ م.ن ، ص42

(×) المعنى مأخوذ من قول الرسول الكريم (العين تزني وزناها النظر)

ينظر: سنن الترمذي ، ابو عيسى محمد الترمذي ، دار الفكر ، 1983 رقم الحديث 215

13/ جمهورية افلاطون ، ترجمة : حنا خباز ، مكتبة النهضة ، بغداد ، د.ت ص127

14/ المستدرك على شعر ابن جبير ، ص124

(×) في المستدرك : اصبحت ، والصواب ما ذكرناه حسب رواية المالقي في (ادباء مالقة) ، ص 132

(×) في المستدرك: ابنه ، والصواب ما ذكرناه حسب رواية المالقي في (ادباء مالقة) ، ص 132

15/ سنن الترمذي ، رقم الحديث 1987

16/ صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، دار احياء التراث العربي ، 1972 ، رقم الحديث 2865

17/ شعر ابن جبير ، ص 84

(×) على قراءة حمزه والكسائي ، ينظر : التيسير في القراءات السبع ، ابو عمرو الداني ، تح : اوتو برتزل ، اسطنبول ، مطبعة الدولة ، 1920 .

18/ شعر ابن جبیر ، ص 43

19/ صحيح مسلم ، رقم الحديث 1547

20/ شعر ابن جبیر ، ص 40

21/ م.ن ، ص 61

(×) المعنى مأخوذ من مقولة لابن عبد البر 463 ، وهو عالم عربي أندلسي ، كان محدث عصره ، فضلا عن كونه قاضيا ومؤرخا ، اعتنق المذهب الظاهري ثم تحول الى المالكي ، متأثرا بمالك بن انس ، احد اشهر رواة الحديث النبوي ، من اشهر كتب ابن عبد البر : جمهرة الانساب ، البيان عن تلاوة القرآن ، التمهيد لما في الموطا من المعاني والاسانيد وفحوى المقولة لابن عبد البر : عدم تقبيل يد الحاكم والامير ؛ لانها تعد بمثابة سجدة صغرى واثمها كبير . وردت هذه المقولة في كتاب : الغاية في شرح الهداية في علم الرواية ، شمس الدين السخاوي ، تح : ابو عائش عبد المنعم ابراهيم ، ط1 ، مكتبة اولاد الشيخ للتراث ، 2001 ، ص 209

22/ المستدرك على شعر ابن جبیر ، ص 121

23/ شعر ابن جبیر ، ص 102

24/ المستدرك على شعر ابن جبیر ، ص

25/ ينظر : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، 1964 ، 2 / 619 ،

26/ شعر ابن جبیر ، ص 34

27/ م.ن ، ص 98

(×) المعنى مأخوذ من قول الرسول الكريم (الدين : النصيحة) .
ينظر : مكارم الاخلاق ، الطبراني ، تح : ابراهيم شمس الدين ، ط1 ، دار الاسرة للطباعة والنشر والتوزيع ، مسقط ، سلطنة عمان ، 1993 ، ص 23

28/ شعر ابن جبير ، ص44

29/ العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تح : محمد الدين عبد الحميد ، ط3 ، مطبعة السعادة ، 1963 ، 1/ 187

30/ م.ن ، 1/ 186

(×) شاعرنا مخضرم ، اسلم عام الفتح كان شاعرنا مجيدا ، اشتهر بالهجاء .
ينظر : العمدة ، 1/ 186

31/ م.ن ، 1/ 187

32/ الرؤية والفن ، عز الدين اسماعيل ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1975 ، ص418

(×) جاءت ست مقطوعات في الماثر الممدوحه ، ومثلها في الماخذ المذمومه .
اما البيت المفرد الذي صدره : واصمت اذا ما سمعت لغوا
فقد جاء مجتزءا من المقطوعة التي صدرها : طهر بماء التقى جنائك
لذلك لم نحتسب ذلك البيت في عدد المقطوعات التي اوردنا رقمها .

33/ فنون الادب ، ه.ب تشارلتن ، ترجمة : زكي نجيب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، 1945 ، ص4

34/ بناء القصيدة الفني في النقد القديم والمعاصر ، مرشد الزبيدي ، دار الشؤون الثقافية ، وزارة الاعلام ، بغداد ، 1994 ، 142.

35/ مفهوم الشعر، جابر عصفور، المركز العربي للثقافة و العلوم، 1982، ص 262

36/ ينظر : الاسلوب ، احمد الشايب ، المطبعة الفاروقية ، الاسكندرية ، د.ت ، ص 43 وما بعدها

37/ قضايا الادب العربي ومظاهر التفكير في الاسلوب ، محمد الهادي الطرابلسي ، مركز الابحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، 1978، ص 280

38/ البلاغة العربية : المعاني والبيان والبديع ، احمد مطلوب ، ط1، بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، 1980، ص 87.

39/ الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1981 ، 3 / 282

40/ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، احمد الهاشمي ، ط12، 1960، ص 77-78

41/ ينظر : الصاحبى في فقه اللغة و سنن العرب في كلاهما ، احمد بن فارس ، طبعة المؤيد ، مصر ، 1910، ص 184

42/ البلاغة العربية قراءة اخرى ، محمد عبد المطلب ، ط1، الشركة المصرية العامة للنشر - لونجمان ، 1997، ص 293

43/ البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، بكري شيخ امين ، ط1، دار العلم للملايين ، 1979،